

إن كل الذين اهتموا بالسيرة الشعبية العربية ركزوا على قيمة هذا المظهر الشعبي المتعدد السمات والأبعاد، وأشاروا إلى الإهمال الذي تعرضت إليه السيرة الشعبية، وبينوا أن لهذا الأدب الشعبي عموماً دوراً أساسياً في الحياة الاجتماعية والفكرية على نحو ما نجد عند نبيلة إبراهيم في مختلف كتاباتها، وخصوصاً دراستها التي كرستها لسيرة الأميرة ذات الهممة⁽⁹⁾.

تبين نبيلة إبراهيم أهمية الأدب الشعبي بالاستناد إلى آراء الفولكلوريين وعلماء النفس التحليلي والأنثروبولوجيين، وتبرز أن إنجاز الدراسة المتكاملة للسيرة الشعبية العربية سيمكننا من اكتشاف روح الحياة الإسلامية العربية، ويساعدنا على تفهمها علاوة على أنها تستطيع «الصمود في وجه تلك الحملة التي وجهها ليتمان ضد العرب (بصدد الليالي) من أنهم لا يمتلكون ملحمة وطنية، لأن اللون الذاتي الذي هو طابع شعر هذا القصص البطولي،، كان كثيراً ما يجعل هذا الشعر محتفظاً بمظهر غنائي» (ص 31). إن نبيلة إبراهيم، وهي تسعى إلى إبراز أهمية السيرة الشعبية، تربطها بالتصدي للفكر الذي يتهم الإبداع العربي، الشيء الذي يبرز عمق الوشائج والصلات بين ما اعتبرناه السبب الأول والثاني. إنهما معا فعلا يتضافران ويتكاملان في نطاق التحول الطارئ، والذي يجد أهم تجسيدات في إعادة النظر في الموروث العربي مع ترهين الاهتمام بما كان مهمشاً، لأنه أبين في الإفصاح عن حقيقة الشعب الذي صار يحتل مكانة خاصة في العصر الحديث. وفي الوقت نفسه يتم التصدي للفكر الغربي الذي يرمي إلى الحكم على الإنسان العربي بالعجز المطلق قديماً وحديثاً.

إن السببين يتكاملان وإن تعددت زواياهما، واختلفت مستوياتهما. ويربطهما بالسبب الثالث والأخير تكتمل أمامنا الصورة التي كانت وراء تحول النظر إلى السيرة الشعبية.

3.1.2. البعد القومي والبطولي: إذا كان السببان السالفان يتصلان بالسيرة الشعبية خارجياً إذا صح هذا التعبير، لذلك ارتبطا بالتصدي للفكر الاستشراقي المعادي للأمة العربية في حضارتها (لم تُقدّم شيئاً) وعقليتها (التجريدية) وإبداعها (خلوه من الملحمة...)، وبالدفاع عن الإبداع أو الأدب الشعبي، وإحلاله المكانة التي يستحق إلى جانب الإبداع الرسمي (كما يسميه فاروق خورشيد)⁽¹⁰⁾،